التصوف في بلاد المغرب العربي

عاشوري أحمد

جامعة تلمسان

تمهيد:

ساهم مسلمي الأندلس عن طريق المغرب الأقصى في انتشار وظهور تيارات صوفية كثيرة في المغرب العربي، رغم أن الكثير من الباحثين يذهبون إلى أن أصول التصوف الإسلامية ترجع إلى المشرق العربي، ويبدو هذا صحيحا لأننا وقفنا عند هذه المعلومة –بالقدر المتاح –لدى الكثير من مؤلفات التصوف التي تناولت بلاد المغرب الإسلامي، وهذا ما جعل بلدا كالمغرب الأقصى يكون أكثر حظا في دخول التصوف إليه ولو عبر بوابة التصوف المشرقي، لذا إذا كنا في تناولنا نركز نوعا ما عليه في المغرب فليس من باب تغيير الدراسة أو الهروب بها إلى مكان غير مكانها فأبو مدين–مثلا– كثير ما سلط الضوء على التصوف في الجزائر وربطه بالعديد من الشيوخ المغاربة مثل أبو يزة البربري النباتي ، وابن حرزهم المعروف إلى يومنا هذا في المغرب باسم سيدي حرزام، الذي تبنى الفكر الغزالي والذي علمه بدوره لأبي مدين[1].

هذا الأخير يعتبر أحد أوتاد التصوف بالمغرب الإسلامي، وهو شعيب ابن حسن الأنصاري (أبو مدين الغوث 1126–1198م) أصله من الأندلس، تحديدا من حصن قصبانة (في اشبيلية)، غادر مسقط رأسه تجاه المغرب الأقصى وبالتحديد إلى طنجة فسبتة فمراكش ثم فاس، بعد المغرب سيهاجر إلى بجاية إحدى حلقات الطريق الرابط بين اسبانية والمشرق، وفي زيارته لمكة حاجا التقى بعبد القادر الجيلاني ليعود بعد ذلك إلى بجاية الذي اشتهر فيها بميدان التصوف، يعود إلى المغرب الأقصى بطلب من السلطان الموحدي "يعقوب المنصور" وفي طريقه إلى مراكش توقف بتلمسان حيث وافته المنية ودفن بها[2].

وعلى فرض أن التصوف في المغرب الإسلامي قد بدأ تصوفا نظريا بتأثير من مدرسة ابن مسرة الجبلي، خاصة بعد أن اظهر المستشرق الكبير آسين بلاثيوس كتابه عن ابن مسرة، الذي استطاع أن يلملم شتات مذهبه من خلال ما ورد حوله من نتف مبثوثة في بعض المصادر القديمة هنا وهناك كالفتوحات الملكية وطبقات الأمم لصاعد الأندلسي، وبعض الإشارات من ابن حزم والشهرزوري والشهرستاني وابن أبي صبيعة والقفطي، يقول كوربان عن مدرسته أنها كانت أول مجتمع صوفي قام في اسبانيا الإسلامية، عرفت كذلك بالتصوف العقلي نبتت وترعرعت بالأندلس ومنها انطلق عبر المغرب الإسلامي كله ليحمل لواءه متصوفة مشارقة[3] .

سيكون للقيروان التي كانت مركزا ثقافيا هاما، باعتبارها همزة وصل بين المشرق والمغرب المنطلق لانتشار الثقافة العربية الإسلامية وما احتوته من مذاهب دينية وزهد وتصوف، وبحكم موقعها الجغرافي المهم ستكون مركز عبور مهم وقبلة للعرب المهاجرين من علماء وطلبة، بغية تعلم أمور دينهم ويتصلوا بكبار العلماء والفقهاء المالكين والاحتكاك بهم، ما مكن التصوف والزهد من نموهما باكرا في إفريقيا (التي كانت عاصمتها القيروان)، وحتى إن جاء كتعبير عن موقف سياسي معاد لتوجه السلطة الحاكمة آنذاك، ودونما الدخول في تفاصيل الصراع بين المالكين وغيرهم نذكر ما قاله ألفريد بيل عن التصوف في المغرب" التصوف الإسلامي قد كان له ممثلوه المشارقة في بلاد المغرب صار له أتباع بين البربر منذ وقت مبكر، ومن السهل على المرء أن يتصور عمق الانطباع الذي أحدثته في بربر إفريقيا حياة الزهد والتبتل التي كان يحياها رجل مثل بهلول بن راشد[4] .

غير أن هناك من يرى –اعتمادا على رواية المالكين– أن التصوف في القيروان لم ينشأ بتأثير من التصوف المشرقي وإنما كان ظهوره متزامنا بسب المؤثرات الثقافية والاجتماعية الجديدة التي تكيف معها الإسلام وأخذ يكتسب منها شيئا فشيئا بعده العالمي والإنساني الجديد خاصة بعد ظهور الفلسفة الإسلامية، حتى انه يقال أن صيت البهلول ابن راشد قد وصل إلى حدود سمرقند واعتبر من أربعة عباد في أقطار الأرض، بل هناك من شبهه بسفيان الثوري المتصوف المشرقي الكبير[5].

وفي الحقيقة ليس البهلول بن راشد الشخصية الوحيدة التي ذاع صيتها بل هناك شخصيات أخرى تشبه الأساطير من خلال ما يحكى عنها كشقران والجنياتي وغيرهم ولئن كان القرن السادس الهجري في المغرب والأندلس هو قرن ابن رشد(520–595هـ– 1126–1198م) في المجال الفلسفي على الخصوص، فإنه أيضا قرن ترسخ التصوف السني بالمناخ المغربي حيث عاش أعلام ظلوا حاضرين في التراث الصوفي والمخيال الشعبي منذ ذلك الحين وحتى زمننا هذا[6]، وإذا كنا اقتصرنا على ذكر بعضهم فلأن البحث واتجاهاته تفرض علينا ذلك، وإلا تهنا في الأعلام الصوفية وما أكثرها، ولكل واحد منهم أثره وكرامته وعلمه، وبفضل ترحالهم وتنقلهم وصل التصوف وعلمه وطريقته إلى كل بقاع الأرض فمن لم يعرفه يكون بالتأكيد قد سمع عنه .

1-1- الجذور الدينية والتاريخية الممهدة:

ونحن نبحث في موضوع التصوف – بجهدنا المتواضع – أوقفتنا عبارة بدت لنا تلخص كل ما نريد أن نبحث عنه في الجذور الأولى له، وهي "التصوف وتراثه يعدل الإسلام وتراثه"، وكأننا نعيد من خلالها ما قاله ذات يوم الجنيد ابن محمد البغدادي "مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة"، فالعلاقة إذن بين لفظ التصوف والإسلام ليست علاقة نوع بجنس بل هي علاقة هوية، فالتصوف الخالص من كل الشوائب والبدع هو الإسلام الخالص، فهو أصيل فيه وليس دخيلا عنه، ولأنه شكل من أشكال الحياة الدينية في كل المجتمعات الإسلامية عبر عصورها المتعاقبة، استطاع كحقل بحث أن يجذب إليه جل التخصصات العلمية لا التخصصات الدينية فقط، وليس هذا فحسب بل تأسست مراكز بحوث مختصة به، ولهذا فالاهتمام به كظاهرة لا يعدو إلا أن يكون اهتماما بالظاهرة الإسلامية عامة .

كنا أشرنا للتو بأن التصوف ليس مذهب دخيل في الإسلام وهذا ما يؤكده كل من لويس ماسينيون ومصطفى عبد الرزاق، فهم لا يرونه لا مأخوذا لا من رهبانية الشام ولا من أفلاطونية اليونان الجديدة ولا من زراديشت الفرس ولا من فيدا الهنود**7**، ولئن كان هذا الادعاء عرف انتشارا عند بعض الأوساط المثقفة فربما الأرجح أنه يرجع إلى تقلب التصوف فهما وممارسة عبر مراحل متعاقبة أضف إلى ذلك ما تكون قد تواردت عليه من ظروف مختلفة.

بل هناك من يرى أن هذا الاسم كان معروفا قبل الملة الإسلامية، أي انه لفظ جاهلي عرفته العرب قبل صدور الإسلام، وهو ما أتى على ذكره أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي المتوفي سنة (373-988م) في كتاب اللمع -في التصوف- "أما القائل انه اسم المحدث أحدثه البغداديون فمحال لأنه في وقت الحسن البصري كان يعرف هذا الاسم، وكان الحسين قد أدرك جماعة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم، قد روي عنه انه قال رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي ".

إننا لم نأت على ذكر كل هذا إلا للتقصي عن الجذور التاريخية قبل الدينية، غير أن هذا التقصي لا يبدو في متناول أي باحث لم يغص عميقا في هذا العالم الروحاني الإسلامي، فليس كل من يعبر عن التصوف هو صوفي ولا من يشهد عن التصوف هو صوفي أيضا، حياة التصوف هي الغياب أو إن شئت حقيقة بدون شكل كما ذهب في هذا ابن الجلاء، ما يدعمه قول الإمام مالك "من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن جمع بينهما فقد تحقق "، لذلك قيل طريق التصوف طويل [8]....

هناك قول سرى عن بعض الباحثين "إذا كانت بلاد المشرق بلاد الرسل والأنبياء فان بلاد المغرب هي ارض الأولياء والصالحين "، وبعيدا عن صحته و غايته وتفاؤليته يأتي كنوع من التأكيد على أن هذه المجتمعات والبلدان عرفت التصوف الذي كان في بداياته متمثلا في الزهد كما يذهب في هذا علال الفاسي، وفي نظر الكثير من الباحثين في التصوف في المغرب الإسلامي يرجع إلى التأثر بكتابات أبي حامد الغزالي وتجربته الذاتية ومنهجه الصوفي، فهو وان كان من أصل خراساني وذو مذهب شافعي ومن أكثر العقليات متانة وأصالة وابتكار.

1-2- تأثير أبو حامد الغزالي :

لا أحد ينكر فضل هذا العالم في المغرب الإسلامي وكذلك في المشرق، حتى انه قيل من لم يقرأ كتاب الإحياء (إحياء علم الدين) فانه ليس من الأحياء، والذي كان له قوة وحضور وتأثير-ولا زال- في الوسط الفكري الديني، تتلمذ على يد إمام الحرمين الجويني، استطاع أن يتعمق في كل علوم عصره واستوعب مادتها، بما فيها الفلسفة السكولاستيكية اللاهوتية والفلسفة اليونانية وغيرها ويحكى أنه صارت معه حادثة أفادته كثيرا، سنرويها باختصار عندما كان عائدا إلى مسقط رأسه طوس اعترض طريقه مجموعة من اللصوص وأخذوا ما كان معه هو ورفاقه، فتوسل إلى كبيرهم أن يأخذ كل ما كان معه وأن يترك له مخلته فقط حيث لا يوجد فيها شيء يفيدهم، وهنا سأله الرجل عن أهمية المخلة بالنسبة إليه فرد عليه الغزالي قائلا: إن فيها كتبا هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها، فقال الرجل ضاحكا فكيف تدعي انك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ثم أعطاه الرجل ما طلب، ومنذ هذه الحادثة أصبح أكثر حفظا لما يكتب من العلوم مفضلا العزلة والتدريس[9]، ثم ما لبث أن بدأ طريقه وحياته في علم سيكون له فيه باع طويل وكعب عال انه علم التصوف، حتى أن ابن الزيات يعتبر كتابه سابق الذكر منتهى علوم التصوف.

ومن المعلوم-طبعا من خلال ما تورده بعض المصادر- أن الغزالي كصوفي ينتمي إلى اتجاه المحاسبي والجنيد وسهل التستري وأبو طالب المكي، وما تزكيته لإمارة يوسف ابن تشفين لإخضاعه بلاد الأندلس[10]، إلا للحد من الترف والبذخ والفساد التي بلغته الدول الإسلامية خصوصا ملوك الطوائف، كما أننا نعرف شخصية ابن تشفين التي تكتسي طابع البدوي التقي المؤمن برسالته فهو لم يعش عيشة الملوك المترفين، وإنما كان متقشفا زاهدا، إذ تكاد تكون هذه الصفة متماهية مع شخصية الغزالي، هذه الشخصية وبما أنها كانت أقرب زمنيا لدول المغرب العربي فإن تأثيرها لم يكن بمنأى عن

مجتمعاتها، لا نقول انه كان السبب الوحيد في انتشار التصوف في المغرب عبر فكره، بل هناك الكثير من الأسباب والأفكار، خاصة كما اشرنا سابقا إلى مسلمي الأندلس الذين نزحوا إلى بلاد المغرب.

وما يراه الغزالي في التصوف هو ما صرح به من أنه هو الطريقة العليا الوحيدة التي يمكنها أن تؤدي إلى الله، وأن الصوفية هم وحدهم من الواجب اعتبارهم ورثة الأنبياء، غير أن الكثير من علماء التصوف يتفقون رغم تعدد الأسانيد الصوفية على أنها تعود إلى أصل واحد هم الصحابة، لأن ما عرف عليهم من تقوى وورع وزهد لدليل قاطع على إحدى الأمارات الكبرى للتصوف على الأقل كما يعرف الآن كمفهوم له إرهاصاته الأولى بحكم العلاقة اللطيفة بين الفعالية والانفعالية بحيث انه يفرق بين الأحوال الروحية التي يهبها الله (الجذب) والمحطات التي يقف عندها الإنسان خلال مساره[11] .

إن اقتصارنا بالذكر على أبي حامد الغزالي، ليس إقصاء لكل الشخصيات الدينية التي عرفت التصوف، ولكن ما يمثله الغزالي في التصوف ما هو إلا امتداد لهذه الشخصيات كالجنيد شيخ المدرسة البغدادية، أضف إلى ذلك تعاليمه نقصد الغزالي التي كانت واسعة وجعلت منه إمام الصوفية المعتدلة[12]، كما أن القرن الذي عاش فيه وهو القرن الخامس، بلغ فيه العلم والأدب مبلغا كبيرا ففيه نبغ كثير من العلماء كأبي إسحاق الشيرازي وأبي الوفاء ابن عقيل، وعبد القاهر الجرجاني وأبو زكريا التبريزي وجار لله الزمخشري والقاضي عياض المالكي، استطاعوا كلهم أن يشكلوا مدارس علمية وأدبية، وكان أيضا ممن عاصرهم الشيخ عبد القادر الجيلاني، الذي قال في حقه الشيخ عز الدين عبد السلام "ما نقلت إلينا كرامات أحد بالتواتر إلا الشيخ عبد القادر "[13].

نسبت إليه الطريقة القادرية، يعتبره الكثير من المتصوفين سلطان الأولياء، وقطب الأقطاب والغوث، وهو عالم له مؤلفات منها لطائف الأنوار، توفي في بغداد سنة 561هجري لها فروع كثيرة في الجزائر والمغرب الأقصى وتونس وغيرها من البلدان حتى في المشرق، والسلسلة القادرية تصل بالنسب إلى الإمام علي ويستدل على هذا أبو القاسم سعد الله في وثيقة ترجع إلى عام 1875 م(1292 هـ) تذكر شجرة النسب الشريف القادرية وسلستها[14] .

أحيانا نحس أننا أمام ظاهرة " التصوف" تكتم عن نفسها أو تغطي لحظة انبثاقها تاريخيا، لكي تخفي تاريخيته كما تفعل بعض العقائد والتصورات الدوغمائية في جميع الأديان[15]، ولفرط ما تناولها الدارسون، ولكثرة ما كتب عنها نجد أنفسنا أمام ظاهرة اجتماعية وثقافية وكأنها نزعت من نسقها الخاص، وبالتالي وكأننا أمام أمر عجبا، لأننا وبشكل ما وعلى رأي جولدتسهير أمام فروق لا حصر لها في تفصيلات أفكاره ووقائعه لعدم تجانسه نظريا وطقوسيا .

يرى كمال جعفر في كتابه التصوف طريقا ومذهبا، أن التصوف كي يضع تجربته الحية موضع المشاريع النظرية يلجأ أحيانا إلى استعارة أنماط من هذه وتلك كوسيلة تعبير، ميزته القوية الذي وقف عندها الكثير هو خصوبته كنظام ديني استطاع أن يصنع معنين حقيقين انطلاقا من مفهوم الحقيقة معنى مطلق ومعنى إنساني .

نهج التصوف واحد، والمعبود واحد، غير انه كظاهرة ومهما قيل عن جذورها الدينية والتاريخية إلا أنها مع مرور الزمن أصبحت قلب الإسلام، والذي تؤكده الكثير من المصادر على أن الزهد هو أساس التصوف ومنطلقه،كما يعتبره ابن خلدون من أهم العلوم الشرعية الطارئة على الدين، ولقد كان عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين طريقة الحق و الهداية تحت شعار التعبد والتهجد والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا، ومن أراد التحلي بهذه الصفات فما عليه إلا أن يصاحب أرباب الصوفية يقول ابن خلدون "ولن يتوصل إلى هذا الحد من التطور الروحاني إلا من صاحب في هذه الحياة أرباب القلوب وطلاب الآخرة، الشيوخ الصوفية إذ هم للمريد وقاية ولطالب السلوك وقاية وهداية"، لعلنا نكون قد وقفنا عند بعض الجذور الدينية لظاهرة التصوف ولنحاول الآن رصدها من خلال التاريخ السياسي الاجتماعي وفق منطلقات وأسس- التي نراها- ذات صلة بالظاهرة .

1-3- المنطلقات والأسس:

بعد أن كان التصوف قد ظهر بشكل فردي في بداياته، إلا انه سرعان ما تحول إلى تنظيم جماعي خاصة في شمال إفريقيا، بعد أن تمأسس في مدارس وزوايا لا في الأرياف فقط بل حتى في المدن، معلنا ولو بشكل ما انسلاخه عن طابعه الفلسفي الذي كان يصعب فهمه إلى أن تحول إلى مجموعة من المعطيات الملموسة، حيث يمثل ولي الله محورها الأساسي، والزاوية فضاؤها الأول، والطقوس معانيها الدينية، وهكذا فإن انتشار الأولياء لم يكن-كما يزعم البعض- استمرارا لطقوس وثنية سابقة للإسلام، وإنما هو نتيجة منطقية لميلاد مجتمع جديد سلم مقاليده لزعامة برهنت عن صدق نواياها اتجاهه وإخلاصها للقيم المؤطرة له[16].

ولكن قبل كل هذا، وجب علينا أن نشير إلى أن انتماء المغرب العربي للإسلام لم يجعله بمنأى التأثر بالمشرق الإسلامي وما رافقه من تحولات، والتي كانت عنيفة في كثير من مراحلها، تجسد ذلك بشكل علني وواضح من خلال الصراع السياسي بين السنة والشيعة، وما تلاها من صراعات أخرى كانت قد حافظت أيضا على طابعها

السياسي، في غاية ثابتة لهذا الأخير وهي الملك أو الحكم أو السلطة، وهو تاريخ طويل لا يسمح المقام هنا بتناوله- كله-، ولنعد إلى المغرب الإسلامي الذي شهد خلال القرون الأربعة الهجرية الأولى أكبر تحول عرفه تاريخه الطويل وهو التحول إلى بلاد إسلامية عربية الذهن والثقافة كما يقول بذلك الدكتور حسين مؤنس في كتابه رياض النفوس خاصة في مقدمة كتابه[17] .

بكل الأحوال يشكل التصوف-هذا الموروث الديني- الذي بدأ يأخذ طابعا شعبيا اختمرت عناصره في هذه الأمة الإسلامية، وأصبح يشكل تعبيرا فاعلا وذو مغزى داخل ثقافتها، إلا لم نقل بتعبير آخر "رأسمال استراتيجي"، فإذا كانت هناك بعض الظواهر الاجتماعية لا يمكنها " أن تسافر " فهناك ظواهر أخرى بطبعها "مسافرة " وتتعدى حدود المجتمع الخاص بها كما يقول مارسيل موس، ونحن نرى في ظاهرة التصوف – على الأقل من وجهة نظرنا – أنها من الظواهر المسافرة ليس مكانيا بتعبير موس ولا بشريا بل حتى زمنيا، لعل القارئ فهمنا بما نقصده زمنيا.

وعلى أية حال، سنشرح هذا في حدود ما تسمح به قدراتنا واطلاعاتنا المتواضعة جدا، ما نقصده هو أن التصوف الذي يعيد إنتاجيته بوعي شديد وربما كذلك بحضور متعمد من غاياته المثالية تحقيق نوعا من التقارب بين المذاهب داخل الدين الواحد، والارتقاء بالممارسة الطقوسية الدينية، كما تذهب إلى ذلك أستاذة علم التصوف بالجامعة اللبنانية سعاد الحكيم، من خلال ربطه بالإنسان المعاصر ولو بشكل ديني، تدعوا فيه هذا الأخير أي الإنسان أن يكون عنده قليل من التصوف لأنه-برأيها- ينعش روح البشرية، خاصة في ظل ما يشتكي منه الإنسان اليوم من تفشي الأنانية المفرطة والطمع المتوحش.

إن لجوء إدريس ابن عبد الله إلى المغرب الأقصى، عبر تنقله من تلمسان إلى طنجة،خسارة بالنسبة لمدينة تلمسان التي لا تفتأ تذكر هذه الشخصية غير أن تأثيرها يبدوا واضحا إلى الآن بذكره، ففي رحلته هذه نزل عند عبد الحميد الاورابي فأكرمه هذا الأخير بعد أن عرفه إدريس بشأنه ونسبه وقرابته من النبي صلى الله عليه وسلم، فبايعوه أكثر قبائل المغرب بعد أن وحد كلمتهم على مذهب السنة والجماعة، ويرجع خروجه إلى الإكراه الذي مارسه العباسيون، خاصة على أبناء عمومتهم العلويين، ومولاي إدريس- كما يتحدث عنه المغاربة — هو أول من كان له فضل الدعوة للإسلام في المجتمع المغربي وغالبية المجتمعات المجاورة[18].

إن الصراع الذي نشب بين دويلات الإسلام في المغرب العربي كله، جعل الكثير من الناس في حيرة من أمرهم، فهناك من لبى الجهاد بدافع من العصبية، وهناك من فضل العزلة والابتعاد عن هذه الحروب خاصة وأنه يعلم كما كانت تعلم الأغلبية بأنه صراع سياسي حتى ولو أخذ الصبغة الدينية لذلك كانت للعوامل السياسية تأثير كبير على حركة التصوف في بلاد المغرب، ولشساعة وعمق هذه الحركة فسنكتفي بدراسة مرحلتين أو ثلاثة على أقصى تقدير ولنبدأ بـ:

1-3-1- مرحلة المرابطين :

المرابطون هم عدة قبائل ينسبون إلى حمير، وأشهر هذه القبائل لمتونه وجداله ولمطه، دخلت هذه القبائل المغرب مع موسى ابن نصير وتوجهوا مع طارق إلى طنجة، لكنهم أحبوا العزلة والانفراد فدخلوا في صحراء المغرب واستوطنوها، وما إن حدث عندهم نوع من الانبعاث الديني، عقدوا أول رباط لهم مع عبد الله ياسين الجز ولي، ومصطلح الرباط في قواميس اللغة لاسيما لسان العرب لابن منظور يحمل معنيين متكاملين الملازمة والمواظبة، فالمعنى الأول يفيد الطابع العسكري أي المرابطة في ثغور الجهاد أما المعنى الثاني فيفيد-دينيا- المواظبة على الطهارة والصلاة.

لا نريد هنا -في الحقيقة- خوض كل غمار تجربة المرابطين، مقتصرين على هذه الحركة في علاقاتها بالتصوف، الذي على ما يبدو كان مبتداه مع عبد الله ياسين رجل الدين الذي جاء إلى الصحراء زاهدا، هاربا بدينه، وهذا على الأقل ما كانت عليه دولة المرابطين على مستوى الحركة الدينية قبل أن تخوض وتدخل مستوى آخر وهو مستوى الحركة السياسية نقصد بالتحديد الملك السياسي، هنا نجد فكرة خلدونية بل ونتلمسها هي علاقة الدين بالملك، لا علينا، فحتى بعد وفاة ابن ياسين سنة1509 هجرية، واصلت هذه المنظمة القوية التي أسسها هو بنفسه مقاومتها وصمودها ضد كل الهجومات لتبلغ قمة مجدها على يد يوسف ابن تشفين، أحد مؤسسي الدولة المرابطية الذي استطاع توسيع الفتوحات لتشمل كل المغرب العربي مؤسسا فيه دولته، تحديدا في مدينة مراكش[19].

عرف عن ابن تشفين ورعه وتقواه وزهده في الدنيا، حتى في ظل الأزمة التي عرفتها الدولة الإسلامية المتنافرة في بلاد الأندلس، أو ما عرف لدى كتبة التاريخ بملوك الطوائف، واستنجاد هؤلاء الملوك به من خطر الصليبين خصوصا من ملكها الفونس، لم يساوم وإنما هب للجهاد ونصرة إخوته في الدين، ولم يرض الإقامة في الأندلس بعد أن قضى على الخطر الصليبي في معركة شهيرة هي معركة الزلاقة وأثار العودة إلى مراكش، ولكن لما عاود الغزاة التحرك من جديد في بلاد الأندلس أدرك أن الملوك غارقين في لذاتهم، وأدرك-في الوقت نفسه- أن زهده وتصوفه وتقواه هو سبب نصرته فأغلظ الوعيد لملوك

الأندلس، خاصة بعد تآمرهم مع ملك اسبانيا، ويقال انه طلب الفتوى من الفقهاء تحديدا من الإمام الغزالي صاحب التصوف السني في بلاد المغرب، فعندما دخل كتاب إحياء علوم الدين إلى المغرب ومؤلفه لم يزل على قيد الحياة، كانت الكلمة للفقهاء، وكان ذلك في عهد أواخر دولة المرابطين[20] .

إذن ما نتفق عليه هو أن النوايا الأولى الأخوية ذات الأخلاق الصارمة والواجبات الشاقة، قد تعلق بها بادئ الأمر المرابطين بهدف الحصول على الجنة، حيث تسرب إليهم عدد هائل من الناس، وعندما وصل عددهم إلى الألف أرادوا الإسراع بتحقيق الغاية والهدف فانطلقوا إلى الجهاد، وتوسيع حملتهم إلى كل الصحراء والمناطق السودانية فهو مشروع ديني وإن بدا سياسي، يهدف إلى تغير واقع اجتماعي وسياسي معين وصف بأنه منحرف وشاذ وفق أسس العقيدة والدين[21] .

1-3-2- دولة الموحدين:

من أحفاد العلويين الآدارسة، خرج محمد ابن تومرت الذي لقب بالمهدي، وهو عربي الأصل بربري النشأة، طلب العلم في المغرب والمشرق تأثر بآراء ابن حزم كما أنه حضر مجالس العلم عند أبي بكر الطرطوشي، وبعد رحلة طويلة أخذ فيها العلم من أرقى مصادره الشرعية، وهو ما جعل ابن خلدون يصفه ب " بحرا متفجرا من العلم وشهابا واريا من الدين"[22]، توصف حياته بالبساطة والتقشف، وإلا لما خرج إلى أغماث ولحق بالجبل، وما إن انتشرت دعوته، حتى صار له أتباع لم يعرف بالتصوف رغم أنه جانب حياة المتصوفة، فلقد كان زاهدا في متاع الدنيا غير انه كان تواقا لإقامة دولة يقام فيها العدل والشريعة، هو من هيأ في الحقيقة الحكم لعبد المؤمن بن علي، بل هناك من يعتبره مؤسس الدولة الموحدية أو الموحدين لكونهم كانوا يدعون إلى توحيد الله، والى تنقية العقائد من الشوائب، وأتت تسمية الموحدين اقتباسا من تعليم الأشعري المتمثل في كتابه المرشد والتوحيد والذي كان مذهب ابن تومرت .

ومما يلاحظ أن خلفاء الموحدين ساروا على نفس الاتجاه من حيث السلوك الشخصي، فهذا يوسف كان كوالده عبد المؤمن "مشيعا للعدل مقسطا فيه، يذهب في زهده وروعه، وبسطه لعدله وسداده في فضله، مذهب أبيه الخليفة رضي الله عنه"، أما يعقوب فكان القدوة في ذلك "إذ نصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ...وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته"[23] وعلى عكس المرابطين الذين اتخذوا من المالكية مذهبا لهم فإن الموحدين بقوا على مذهب قائدهم الروحي ابن تومرت المذهب الظاهري وهو مذهب ابن حزم، ولم يَحد خلفاء الموحدين عن هذا الاتجاه، وكليهما انطلق من معطى أساسي وهو أن تجاوز وضع منحرف إلى آخر "سوي" يقتضي التوحيد السياسي، وهذا لا يتحقق إلا بإخضاع كل القوى الاجتماعية لسلطة الحركة الجديدة، ثم للنظام المتولد عنها[24] .

2- التصوف في الجزائر :

إن الترابط الكبير بين دول المغرب العربي الكبير ليس وليد اللحظة فلطالما جمعهما مصير واحد وإن كان يجمعهما الآن اشد لولا أمور الساسة والسياسة، يتمثل هذا الترابط في الثقافة والفكر والدين بالخصوص، خاصة فيما يعرف بالتصوف على مدار تشكله ودخوله إلى هذه البلدان، ولئن كان حديثنا بشكل عام عن هذه الدول وتأثرها بهذا المنحى الفكري معروف وخضنا فيه بالنزر اليسير أما بالنسبة للجزائر على وجه التحديد وهي ليست بعيدة عن التأثر كذلك، فقد بدأ التصوف فيها تصوفا نظريا، ثم تحول ابتداء من القرن العاشر الهجري، واتجه إلى الناحية العملية الصرف، وأصبح يطلق عليه " تصوف الزوايا والطرق الصوفية "[25] .

هذا الأخير هو المشاع في الجزائر إلى درجة أنك لا تجد قرية إلا وبها زاوية أو طريقة، ولكن قبل هذا يرى عبد المنعم القاسمي الحسني أن التصوف في الجزائر مر بمرحلتين أساسيتين هما:

2-1- فترة التصوف النخبوي :

ويحدده زمنيا بالقرون السادس والسابع والثامن الهجري، حيث كان مقتصرا على طبقة معينة من المتعلمين ويدرس في المدارس الخاصة، وبقي مقتصرا كذلك على الحواضر الكبرى تلمسان بجاية وهران وغيرها.

2-2- فترة التصوف الشعبي :

وهي الفترة التي تعرف بالتحول من التصوف النظري الفكري إلى العملي العامي ويحدده زمنيا بالقرن التاسع الهجري وهو القرن الذي شهد فيه انتشار الزوايا والرباطات في المدن والأرياف، ومنه ظهرت الطرق الصوفية الكبرى وانتشرت كالقادرية والمدنية و الشاذلية [26]، والتي سنأتي على ذكرها لبعض التفاصيل أيضا .

أما العوامل والأسباب التي أدت إلى انتشار التصوف في الجزائر تكاد تكون بالتقريب هي العوامل والأسباب التي أتينا على ذكرها آنفا، فمن الأسباب والعوامل الفكرية هو وجود أعلام التصوف الذين تأثروا بالتصوف المشرقي، ممثلا في شخصية علمية حاولت التوفيق بين الحقيقة والشريعة ذلك هو الإمام الغزالي حجة الإسلام وهذا قد استفضنا فيه بالشيء الذي قدرنا عليه، ومن الأسباب السياسية سقوط الأندلس نتيجة التدهور السياسي الذي أصابها عقب سقوط الدولة الأموية وتعرضها للغزو الاسباني بمعظم سواحل

المغرب الإسلامي، مما أدى إلى هجرة كثير من صوفية الأندلس إلى الأراضي الجزائرية والتي استطاعت أن تستفيد منها الجزائر، وأصبح بها أعلام كثير مثل الشيخ أبي مدني ، والملياني ، والثعالبي وغيرهم كثر، ناهيك عن أسباب أخرى، وان بدت للبعض لا قيمة لها إلا أنها كان لها اثر، نذكر منها انتشار البذخ والترف والتبذير والإسراف لدى طبقات معينة جعل القيم الدينية والأخلاقية في مرمى خطر، لذا كان لا بد من وجود حل، ربما كان التصوف بكل أشكاله وملامحه حلا من الحلول .

وللإشارة والاستدراك، فلقد اتخذ الأندلسيون بدء من سنة 1609م من مدن ايالة الجزائر مقرا لهم وتركوا عليها بصمات ظاهرة أينما حلوا، خاصة مدنها الكبرى كالبليدة ومستغانم وغيرها، فلقد غرسوا الكثير من الأشجار المثمرة والزيتون والقطن، وصنعوا الحرير، وزودوا مدينة الجزائر بالمياه، في حين لم تكن هذه المدينة تعتمد إلا على الآبار والصهاريج ويذكر مصطفى بن حموش تاريخيا آخر بدء زحف الأندلسيون على شمال افريقيا وهو سنة 1492م تاريخ سقوط غرناطة، ونحن نعلم ما كانت عليه اغلب مدن الأندلس من تقدم في العلوم الدنيوية والدينية[27] .

إن هذه الهجرة بغض النظر عما حملته لدول شمال افريقيا من اطر حضرية، ذكرنا منها بعضها إلا أن أهم هجرة هي تلك التي عمد إليها صوفية الأندلس إلى الأراضي الجزائرية، ما جعل هذه المدن تعرف التصوف على حقيقته، فالفقهاء القادمون من الأندلس وبالضبط من قرطبة التي كانت تمثل مركز الإشعاع، كان متاعهم يتمثل في العصا باليد، والقرآن تحت الذراع، وعلى الكتفين المزود محملا ببعض الأكل، بهذه الصفات دخلوا من الساقية الحمراء إلى القبائل البربرية مرتدين –مجازا–ميزتهم الخاصة "بالولاية "، ناهيك عن وجود أعلام صوفية عملوا على نشر التصوف في المغرب كما في الجزائر واستطاعوا أن يؤثروا بفكرهم ومؤلفاتهم على المجتمع الجزائري نذكر منهم أحمد بن يوسف الراشدي الملياني ومحمد أفغول وعبد الرحمان الثعالبي والشيخ أبو مدين، أضف إلى كل هذا إهمال الخاصة والعامة لكثير من مبادئ الدين وروحه، والانحراف الخلقي الذي بدأ يتفشى بشكل رهيب .

الخاتمة:

حاولنا في هذه الورقة أن نكون مختصرين إلى أبعد حد، ووقفنا عند أهم المحطات التاريخية التي شهدها التصوف في بلاد المغرب العربي والجزائر، ثم إن بدية ظهور الإسلام الصوفي –لا الطرقي– كان في القرن السادس الهجري أي الثالث عشر ميلادي، فقد أنشأ الصوفية مدارس كبرى كان تأثيرها قد وصل إلى الجزائر خلال قرون متعاقبة، إذ ظهرت جمعيات دينية كثيرة تفرعت عنها زوايا كبرى أصبحت فيما بعد محلات للعبادة ومدارس للتعليم ومنازل للضيافة.

الهوامش :

1- بوعتو بشير التصوف في الجزائر دراسة وصفية تحليلية الجزء الأول دار السبيل الجزائر 2013 ص289-290.

2- بوعتو بشير نفس المرجع ص368-369.

3–خميسي حميدي نشأة التصوف الفلسفي في المغرب الإسلامي الوسيط اتجاهاته مدارسه أعلامه دراسة الجزائر وزارة الثقافة 2007 ص34.

4- خميسي حميدي نفس المرجع ص20.

5- خميسي حميدي نفس المرجع ص21.

6- مخلوفي محمد التصوف دراسة تحليلية نقدية دار الأخوين سليكي طنجة ط1 أبريل 2013 ص62.

7- لويس ماسينون ومصطفى عبد الرزاق التصوف بيروت دار الكتاب اللبناني ط 4 1984 ص48.

8- بوعتو بشير نفس المرجع ص212.

9- فيصل بدير عون التصوف الإسلامي الطريق والرجال مكتبة سعيد رأفت عين شمس القاهرة 1983 ص204.

10- عبد الجليل العلمي في أصول التصوف بالمغرب القرن السادس هجري –الثاني عشر ميلادي كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ط1 2014 ص17-18.

11- بوعتو بشير نفس المرجع ص215.

12 آنا ماري شيمل الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف ترجمة محمد إسماعيل السيد ورضا حامد قطب ألمانيا منشورات الجمل ط1 2002 ص66.

13- الشيخ ع القادر الجيلاني آداب السلوك تقديم محمد زكريا الزعيم دمشق دار السنابل 1995 ط1 ص35-35.

14- سعد الله أبو القاسم تاريخ الجزائر الثقافي الجزء الرابع دار البصائر الجزائر 2007 ج4 ص42-42.

15- أركون محمد قضايا في نقد العقل الديني كيف نفهم الإسلام اليوم ترجمة هاشم صالح بيروت دار الطليعة 2000 ص 280.

16- عبد الجليل العلمي نفس المرجع ص24.

17- عبد الجليل العلمي نفس المرجع ص80.

18- عبد المنعم منال أثر الطريقة الصوفية في الحياة الاجتماعية لأعضائها دراسة أنثربولوجية دكتوراه آداب....ص145.

19- بوعتو بشير نفس المرجع ص 358.

20- مخلوفي محمد نفس المرجع ص46.

21- بوعتو بشير نفس المرجع ص358.

22–جمال شعبان تجلي الظاهرة الدينية عند نشأة الدول في فلسفة ابن خلدون الحركة الموحدية نموذجا معسكر مجلة المواقف عدد خاص أفريل 2008 ص207.

23- عبد الجليل العلمي نفس المرجع ص35.

24–صلاح مؤيد العقبي الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها دار البصائر الجزائر طبعة خاصة 2009 ص13.

25–عبد المنعم القاسمي الحسني الطريقة الرحمانية الأصول والآثار منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى دار الخليل الجزائر ط1 2013 ص251.

26- بن حموش مصطفى مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني من خلال مخطط ديفولكس والوثائق العثمانية دار الأمة الجزائر 2007 ص17.

27- بوعتو بشير نفس المرجع ص361.